باحثة البادية

(٧)

المصلحة

قدّم يوماً احد وزراء روسيا الى نقولا الاول تقريراً ضمّنهُ اقتراحات توسّم فيها خيراً للاصلاح والارتقاء فلما انتهى القيصرُ الى هذه الكلمة كتب على هامش التقرير: «الارتقاء؟ اي ارتقاء؟ فلتُحذَف هذه الكلمة من اللغة!»

للاوامر الهمايونية أن تقضي على اسم الارتقاء في معاجم اللغة والتقارير الرسمية، الاّ ان المعنى منهُ يبقى بنجوة عن الالغاء والتكبيل عاملاً عملهُ في الافكار وفي القلوب. أيظنُّ ذوو التيجان والقابضون على أعنّة الامم انهم فائزون في مكافحة القوى الحيوية والقضاء عليها، وما هم فائزون الاّ بارتدادهم خاسرين. حظر القيصرُ على الوزير استعمالَ كلمةٍ نابَ عنهُ ان يحبس مجراها المندفع في نفوس الرعايا. ولما أن أقبل ذلك التيارُ الجارفُ على هاوية البولشفية اندفعَ يهبطُ فيها من اعالي الملكية المطلقة مكتسحاً معهُ رفيعَ العروش ومبطاش الصوالجة، ولو سبقت اليدُ المدبّرةُ ووزّعتهُ ترعاً وسواقي تُرضعُ الحدائق وتروي المروج لما ظلَّ شلالاً عصيّاً يولولُ مبعثراً على الصخور. أكان ذلك لروسيا خيراً أم كان لها شرّاً؟ سؤالٌ ما زال الجوابُ عنهُ دفيناً في صدر المستقبل الجدير دون غيره باصدار الاحكام التاريخية

لئن كان النقدُ فطرياً في المرء فالاصلاحُ كذلك. النقدُ مزيجٌ من كرهٍ وحبّ: كرهٍ لما يُرغبُ عنهُ من موجودٍ، وحبٍّ لما يرغبُ فيهِ من مفقودٍ. وهذا المفقود المرغوب فيهِ هو عنصرُ الاصلاح بعينهِ. لذلك كان كلُّ نقدٍ اصلاحاً مضمراً، وكلُّ ناقدٍ مصلحاً محجوباً. ايُّ شيءٍ يحلُّ بنا لولا الاصلاحُ؟ انهُ اذا لم يتبسم لنا بسمةَ التعليل والتسويف التفَّتْ حولنا اكفانُ الجمود وتاقتْ جوانبنا الى اخشاب النعوش ومضاجع البلى. انَّ جمال كلّ شيءٍ قائمٌ على الرجاء بالتحسن والنموّ والتقدّم ليصير في الغد افضل منهُ اليوم، وما مجدُ الانسانية الاّ في كونها اليوم اكثر قوةً منها البارحة واشمل ادراكاً. لا أمل بلا اصلاح، واذ لم يكن

تحت أمل؟ فما هو معنى الحياة؟ كلنا عالم ذلك، على انّ من الناس من يلحق به من صدمات الايام ووخز الساعات ما يلفته الى ما لا يحفل به الآخرون، فيصبح النقد والاصلاح غاية حياته ومحوراً تدور حوله الافكار منهُ والاقوال

تلك هي باحثة البادية. قلتُ في فصلٍ سابقٍ انها لا تعطي قارئها جناحين يطير بهما، ولا تكسبُ لهُ من رحيق الفكر والخيال ما يعلو بهِ الى قمة الاطلس او يحدو بهِ ايغالاً في هياكل السرّ والالغاز، ولا يهمها من خفايا النفوس غير ما هو معروف تشتركُ الجماعات في تقاسم خيراته وشروره. انها تبقى بين جدران بيتها الاّ انها تحدقُ في مظاهر الاسى بعين يظلمها خيالُ الدموع فتكتبُ متهيجةً متأثرةً كأنما هي تحاربُ ذرّات الشقاء بكلّ كلة تخطها. رأت كل ما يتقيدُ بهِ قومها من عادات دهرية وفروض دينية واصطلاحات اجتماعية؛ ورأت من جهةٍ اخرى ما لا بدّ من ادخالهِ من تحوير وتحسيناتٍ جديدة تؤهلهم للسير بكرامة في موكب القرن العشرين، فنسيت او تناست تأثرها لتبسط رأياً معتدلاً يوفقُ بين القديم الجامد والحديث المتهوّر. كتبت للجميع لانها ارادت ان يفهمها الجميع، ولم تقصد الاّ الافادة. يدلك على ذلك تصريحها هذا: «اريد مما كتبت واكتب للجريدة بعنوان النسائيات تخفيف ويلات الزواج على قدر الامكان. ولست اقصد كل رجل على الاطلاق كما اني لم اكن اقصد كل امرأةٍ وانما الكلام على من فسدت اخلاقهم (وهم مع الاسف كثيرون) فسببوا شقاء النساء وهدموا بناء الزوجية (١)

وقد حاولت تخفيف تلك الويلات والتسوية بين الرجل والمرأة واختطاط الاسلوب لاصلاح شؤونهما بالقلم واللسان معاً. وهذا استهلال خطبتها الاصلاحية الاولى في نادي حزب الامة

«ايتها السيدات. احيكن تحية أخت شاعرة بما تشعرن. يؤلمها ما يؤلم محزونكن وتجذل بما به تجذلن». «ليس اجتماعنا اليوم لمجرد التعارف او لغرض مختلف الازياء ومستحسن الزينات. وانما هو اجتماع جدي اقصد به تقرير رأي لنتجه ولابحث فيه عن عيوبنا فنصلحها. فقد عمت الشكوى منا وكثرت كذلك شكوانا من الرجال. كلنا متظلمون وكلنا على حقّ مما نقول. بيننا وبين الرجال

(١) «النسائيات». ومعلوم ان جميع فصول النسائيات نشرت في «الجريدة» قبل ان تصدرها مجموعة

الآن شبه خصومة وما سببها الا قلة الوفاق بيننا وبينهم. هم يعزون هذه الحالة الى نقص في تربيتنا وعوج في طريقة تعليمنا. ونحن لنزوها لفطرستهم وكبريائهم » . « والاوفق أن نسمي الوفاق جهدنا ونزين سوء التفاهم والتحزب لنحل بدلهما الثقة والانصاف ولنبحث اولاً في نقط الخلاف »

اذن فغايتها صريحة وهي تريد اصلاحاً سريعاً لان الشقاق بين الجنسين يؤلمها. قد وجدت الوسيلة ، فلماذا لا يسير عليها الحائرون ؟ انها تكتب دائماً كمن يرسل اقواله من على منبر الخطابة ، وعندها استحسان لرأيها واقدام وشجاعة ملازمة دائماً لجميع المصلحين . كم من الجرأة والثقة بالذات في هذه الجملة : « هو اجتماع جدي اقصد به تقرير رأي لنتبعهُ ولا بحث فيه عن عيوبنا فنصلحها » ! هذه المرأة تشعر بقلبها ، ان لم تقرّر بادراكها ، ان المتفوق بين ذويه رسول من لدن الله جاء يحملُ اليهم رسالة انما هي كلُّ غايته في الحياة

كلُّ مقالاتها جديرة بالاهتمام ، وكلّ انتقاد واصلاح فيها يستحقُّ البحث والنظر ، غير اني اورد هنا وسائل الاصلاح التي لخصتها في بنود عشرة جعلتها خطبتها الاولى في نادي حزب الامة قالت :

« بقي علينا ان نبين الطريق العملي الذي يجب ان نسير عليه . ولو كان لي حق التشريع لاصدرت اللائحة الآتية :

(المادة الاولى) تعليم البنات الدين الصحيح اي تعاليم القرآن والسنة الصحيحة

(المادة الثانية) تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الاولي اجبارياً في كل الطبقات

(المادة الثالثة) تعليمهن التدبير المنزلي علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية الاطفال والاسعافات الوقتية في الطب

(المادة الرابعة) تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء في مصر

(المادة الخامسة) اطلاق الحرية لي تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد

(المادة السادسة) تمرين البنات من صغرهن على الصدق والجد في العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل

(المادة السابعة) اتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل ان يجتمعا بحضور محرم

(المادة الثامنة) اتباع عادة نساء الاتراك في الاستانة في الحجاب والخروج

(المادة التاسعة) المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الاشياء والناس بقدر الامكان

(المادة العاشرة) — ليست هذه المادة الا ملحقاً مصرية — على اخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا

وليتم مذهبها الاصلاحي أضيف الى البنود السابقة اقتراحاتها العشر في المؤتمر الاسلامي ، وهذه خلاصتها :

« الاقتراح الاول : ذهاب النساء في المدن والقرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ في المساجد

الاقتراح الثاني : جعل التعليم الاولي اجبارياً وتكثير المجانية على قدر الامكان في مدارس البنات الموجودة حالاً او انشاء غيرها

الاقتراح الثالث : تلزم جميع المدارس اميرية واهلية بتعليم الدين الاسلامي

الاقتراح الرابع : تعين في كل مدرسة للبنات سيدة مسلمة عاقلة تراقبهن كيلا يهملن واجباتهن الدينية ولا يخرجن عن عادات قومهن

الاقتراح الخامس : توسيع نطاق مدرسة المعرضات الحاضرة . والاولى ايجاد مدرسة قطب جديدة لتعليم النساء الصناعة تعليماً كاملاً بدرجة تساوي درجة الاطباء

الاقتراح السادس : تكثير المستشفيات المجانية والصيدليات للمرضى من الرجال والنساء والاطفال ويكون في كل مركز من مراكز المديريات وقسم من اقسام المدن واحدة على الاقل

الاقتراح السابع : اتخاذ جميع الوسائل لمنع الحيف الواقع على النساء المسلمات فيلبه البوليس فان يراعي الآداب العمومية في الطرق والاجتماعات وان يسوق كل مخل بالآداب الى القسم

الاقتراح الثامن : السعي في تقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس بقدر الاستطاعة فان شقاق النساء واختلاف الاخوة الناشئين من هذه العادة وما يتبع ذلك من الشقاق كل ذلك يدهور الامة في مهاوي الفناء الادبي

الاقتراح التاسع : تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم من الصناعات الضرورية لجنسها كالتفصيل والتطريز والقيام على تربية الاطفال والخدمة حتى لا يحتاج الوطنيات الى غيرهن من الاجنبيات

الاقتراح العاشر : منع النساء من الشي في الجنازات ومن الاجتماع للندب والنطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة التي لا وجود لها الا في مصر »

عفواً يا سيدتي ! ان عندنا مثلها في سوريا ...

***

هنا أطبق كتاب « النسائيات » شاعراً بأنّ علامة استفهام كبيرة تتجسم في . أودّ أن افهم كيف لم تفكر في وجوب اهتمام النساء بذوي الفاقة ، وضرورة تكوين جمعية خيرية نسائية بين المسلمات ! لقد اذهلني دائماً ان ارى في هذا القطر جمعيات خيرية نسائية لجميع الطوائف والنحل الا للمسلمات ، مع ان المسلمين أغنى عناصر القطر وأرحبها كرماً وأقربها الى اتيان المعروف . وبما انهم العدد الاوفر كان المحتاجون من فقرائهم كثيرين . ان اعمال البر أقرب الاشياء الى قلب المرأة . ولو فقدت جميع العناصر اليقظة الفكرية فان حنانها يظلّ حيّاً جائلاً منسكباً على من يستحقّهُ ويلمّ اليهِ . لذلك لا افهم إغضاء السيدات المسلمات عن تأليف جمعية برّ منهنّ

وفي ما عدا ذلك ، هل من معترض على صلاحية اقتراحات الباحثة ؟ اني أرى شيئين بارزين من إطار هذا المذهب الصغير : أولاً وجوب فتح ابواب التعليم للمرأة . ثانياً وجوب انطباق كل اصلاح على التعاليم الاسلامية والعادات القومية . وتعصبها للامر الثاني جعل أحدهم يقول عنها « انهُ لا ينقصها سوى العمة لتصير شيخاً » . على اني اتفاءلُ خيراً بتمسكها بالمصرية والاسلام ليكون المتمدنون اكبر ثقةً برأيها ، هي التي لا تقبل من الدخيل الاَّ ما ليس عنهُ غنى

إننا في زمنٍ مطالبهُ عديدةٌ واحتياجاتهُ شديدة ، وللمرأة كغيرها مكانٌ تحت الشمس ، وعليها واجبات لا بدَّ من تتميمها نحو نفسها ونحو الآخرين . فاذا قدَّر عليها أن تعوّل ذويها وهي ليست من اهل الخدمة والخياطة ، فكيف تحظر عليها فروع العمل الاخرى ؟ حتى واذ لم تقدم على الدرس عن حاجةٍ بل عن رغبة بحتة واحتياج الى المعرفة والنور ، ذاك الاحتياج المهذّب المنبثق من أعماق الكيان ، فبأيّ عدلٍ يحكم عليها بالبقاء في سجن الجهل ، وبأي انصافٍ تُمنع عن التصرُّف بما لديها من مشيئةٍ تطلب القوة ، وذكاء يطلب الغذاء ؟ كيف يحجر عليها في حريتها الشخصية البريئة ، وهل أوجد الباري هذه الحرية والعدالة جنباً الى جنبٍ فكتب على كلٍّ منهما : « خصوصية للرجال » و « حقوق التمتع محفوظة للرجال » ؟

وعلى ذكر التعليم أودُّ ان اقحم جملة معترضة واقول لكم من علم ضروري للبنين والبنات على السواء يهمل بتاتاً بينما هم يصرفون الاعوام في تحصيل آخر لا ينتفعون به . نعم ان المرء يستفيد من جميع العلوم الاَّ انهُ بحاجة ماسة الى بعضها دون الآخر . واني لاضربُ مثلاً بواحدٍ منها . فاني كلما طالعتُ في الصحف أخبار المحاكم والاحكام شعرتُ بان علم القانون والوقوف على ما جاز وما حرّم من الاعمال ، من اهم ما يتلقنهُ افرادُ مجتمع منظم يسير تحت نفوذ تشريع واحد . إن المرء يجبهُ القانون في كل خطوة يخطوها وفي كل امرٍ يأتيهِ . يرتكب المخالفة والجنحة لاهياً ، وقد ينقد ثروةً او يرتكب جناية على غير علم منهُ ، ويُعاقَب شديداً على جرائم لا وجود لها في تقديره ولا هو يدري بها الاَّ حين صدور الاحكام فيها . كذلك في اعمالهِ اليومية يحتاجُ أحياناً الى ايضاحات صغيرة في ذاتها الاَّ ان جهلهُ اياها جسيم النتائج . فيلجأ الى السماسرة والمحامين وكتّاب المحامين

والموظفين العديدين — وقد يبتغي ايضاحاً فلا يلقى الاَّ تعقيداً. فتتعطل مصالحهُ وترتبك شؤونهُ ، ولا يقفُ على ما يريد الاَّ ساعة تنقضي فرصة الاستفادة وملاقاة الشر . وكل ذلك اساسهُ جهل اصول القانون وجهل أساليب التصرف المعينة في احوال مخصوصة

وما يقالُ في الرجل يزاد عليهِ في المرأة . لاسيما المرأة المسلمة التي يقوم حجابها جداراً بينها وبين دوائر الاعمال فيتاجر بجهلها الوكيلُ والقيم والحارس والكاتب ومن نحا نحوهم ، فيتلاعبون بمصالحها ما شاءت لهم الاطماع تلاعباً . فاذا كانت المدارس تعنى الآن بتدريس علم الصحة البدنية لاهميتهِ فاحر بها ان تدرس مبادىء القانون وهو علم الصحة الاجتماعية . وعلى اللبيب المتيقظ رجلاً كان او امرأة ، ان يدرس ما استطاع منهُ في وحدتهِ كيلا تصادمهُ البلية ولات ساعة ندم

***

رأيُ الباحثة في الخطبة والزواج معروف تقبلهُ الاكثرية المتنورة ان لم يكن عملياً فمبدئياً . لقد قالت في لائحة خطبتها في نادي حزب الامة — وفي جميع مقالاتها عن الزواج — باتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل ان يجتمعا بحضور محرم . وقالت في الاقتراح الثامن من اقتراحاتها في المؤتمر الاسلامي بوجوب السعي في تقليل الزوجات . وهما رأيان في منتهى التعقل والصواب . ومما يبشر بخير ان تعدد الزوجات أصبح نادراً في الطبقة الراقية وقلَّ من هؤلاء من يتزوجون بلا اجتماع وتعارف . وانتباهُ الآباء والفتيات لهذا الامر والعمل بهِ انما هو في مصلحة المرأة المصرية كما انهُ في مصلحة القومية المصرية . والاَّ فما اسهل أن يتزوج الشاب من امرأة اجنبية تُشربهُ روح وطنيتها فيتزوجها مبصراً بدلاً من ان يقترن بالمصرية كفيفاً

وقد ارتأت اتباع عادة نساء الاتراك في الاستانة في الحجاب والخروج. تُرى تعني عادتهن منذ اثني عشرة سنة ، او عادتهن المتحركة مع الحياة المتغيرة بتغير الاحوال ؟ إن المرأة التركية تحركت كثيراً في هذه الاعوام وقد كتب بعض مراسلي صحف الفرنجة في الاستانة انها صارت تسير في الشوارع سافرة بزيّ باريسي . كذلك تحركت المرأة المصرية . وكان ان قامت مظاهرات نسائية في ايان الحركة الوطنية في الربيع السابق فلم يعترض الرجال ولم يقابلوا هذه النهضة الجميلة

بغير الرضى والاعجاب . ثم كان ان لجنة ملجأ الحرية أعلنت في اواخر مايو او أوائل يونيو رغبتها في اقامة سوق خيرية تبيعُ فيها الفتياتُ المصريات أزهاراً مساعدة للملجأ . فهبت الصواعق والزلازلُ في وجه هذا الاعلان واستاء الجمهور استياء شديداً

وانا قرأت احتجاجاته بتعجب واحترام : التعجب لان سخط اليوم لا يتفق مع رضى الامس مع ان اعمال البر لا تنقص اعمال الحماسة الوطنية شرفاً اجتماعياً ، وان فاقتها شرفاً اخلاقياً . اما الاحترام فلأن ذلك الإباء صادرٌ عن طائفة كبيرة من المصريين ، وجميع الآراء القومية جديرة بالاحترام لانها تعرب عن نفسيات الاقوام وعقلياتهم . ولكني عدتُ على رغم مني اتبين أحوال المرأة التركية . ففضلاً عن انها اشتغلت في مصالح التليفون والبريد والتلغراف وغيرها فان الحركة لم تقتصر على طالبات المعاش . اذ أن السلطانة حرم السلطان محمد الخامس ذهبت الى احدى مدارس البنات في الاستانة لتتصدر حفلة ختام الدراسة السنوية ، ووزعت بيدها الجوائز على المبرزات من الطالبات . ولما زار الامبراطور شارل الهبسبوري الاستانة وذهب لمقابلة الحضرة السلطانية فان الحرم السلطاني حضرت تلك الزيارة الرسمية في قاعة التشريفات من وراء الحجاب . قد يقال ان هذا ليس سفوراً بحتاً . صحيح . ولكنهُ يشبه المقدمة ، ولم يسبق لهُ مثيل ، على ما اعلم ، في تاريخ سلاطين بني عثمان . واذا قيل إنّ هذه الاّ اخباراً طيرتها البروق في ذلك الحين ولا يسهل التثبت من صحتها ، فاذا نقول في السوق الخيرية التي اقامتها في الاستانة جمعية نسائية قبل الحرب بشهور قليلة وقد برزت فيها سيدات واوانس البيوتات الاسلامية الكبيرة ، وقد نشرت صور بعضهن يومئذٍ مجلة الايلوستراسيون » الفرنساوية

ليس ما اوردهُ هنا الاّ سوانح لا قيمة لها في الاصلاح المرجو . ولا اهمية لما اقولهُ ازاء ما يرتئيهِ أساطين المسلمين . ثم هل يجدي الاحتجاج والاقتراح قطعاً ازاء تيار التطوّر والانتقال المحتم من حالٍ الى حال ؟ وباحثة البادية التي يعرفُ من قرأ كتاباتها تعصبها للمصرية والاسلام ، وغيرتها في المحافظة على العادات الشرقية ، تقول بالسفور ليس اليوم ولكن في المستقبل ، لان المرأة ليست الآن على استعداد لهُ لا هي ولا الرجل . ولقد سمعتُ منها ذلك شفاهاً

بعد ان قرأتهُ في « النسائيات » . وأجده الساعة في مقالي الفرنساوي الذي كتبتُ تحت تأثير المقابلة الاولى . وفيهِ ما معناهُ :

« بعد تناول الشاي تحادثنا في تحرير المرأة والحجاب الذي يحول بعضهم تمزيقه فقالت : « سيمزق الحجاب عن قريب ونحن سائرات حتماً نحو السفور ولكن أيكون ذلك لخيرنا ؟ أنا من القائلين بتحرير المرأة ولكن علينا ان لا نحتضن الحرية دفعة واحدة لنأمن شرها . ليس من الممكن ان نخرج من الظلام الحالك الى النهار الساطع دون ان تبهرنا الانوار فتتضعضع البصائر ولا نعود نرى الاشياء في مكانها كما هي »

قلت مبتسمةً على ايماء الفاتنة في هذا الموضوع : « حقاً ان الابصار تتبهر في الاوقات الاولى فتخطىء النظر والحكم ثم لا تلبث ان تعود الى مقدرتها الطبيعية . في الاندفاع الاول للتحرير الساذج لا بد من بعض الفوضى ثم تعتدل الشؤون وتتبع صراطاً سوياً »

أجابت بقوة : « كلا ! محجوبات اليوم يجب أن يتقين محجوبات دائماً . أما بناتنا الصغيرات ... »

قلت : « نعم . البنات الصغيرات اللاتي ما زلن جالسات على مقاعد الدراسة ويلبسن البرنيطة الافرنجية ... »

قالت : « قلت نعم . اولئك يستطعن متابعة السفور اذا عرفن حدود الحرية وتلقين تربية متينة . ولكن أنى لهن ذلك وأمهاتهن على ما هن عليه ! .. » (١)

الامهات ! تتوقفُ عند سماع هذا الاسم امام كل صلاح وكل فساد ، وتتطلع الى حاملاتهِ حيال كلّ تربية اخلاقية وكل إصلاح اجتماعي . لئن كانت الجنةُ تحت اقدام الامهات فان الجحيم بين ايديهن ، ولهن ان يكنّ لذويهنّ ولوطنهنّ نعيماً أو جحيماً ، عظمة او هواناً . لو ادركت معنى هذه الكلمات التي طال ترديدها كلُّ فتاة ، وبذلت مجهودها في اتيان ما في مقدورها ، لضمنت للذراري تربيةً عالية ورفعةً مقبلة . لو أدركت كلُّ امرأة ان في قبضتها السعادة والشقاء لادركت قيمة الواجب وكبرت في عيني نفسها ، وفهمت هذا العناء العذب والمجد الخفي الحلو في ان تكون مليكة الاسرة . وإذن لاصبح الشرقُ شرق العلوّ والبيان والقدرة كما انهُ شرق الشمس والقمر . عبثاً يقتحم الرجل منطوِّق الذرى . ان لم تكن رفيقتهُ في افقهِ المعنوي فانها تثقلُ مواهبهُ بمخافتها وتعذبهُ بعطالها ، وتسيء تربية اولاده بتربيتها السيئة . وكلما حاول التحليق فوق جبل كانت هي جبلاً معلقاً في عنقهِ تشدُّ بهِ الى الهاوية ، بدلاً من ان تكون بتشجيعها واعجابها جناحين لنفسهِ . كلُّ اصلاح وكلُّ نظام جدارٌ لصرح العمران والعائلة ، المرأة اساسهُ . لترتفع

(١) " Musulmane d'Aujourd'hui " نشرت في جريدة « الپروجريه »

الجدران الباذخة المزخرفة ماشاء ذكاء الباني ومجهوده ارتفاعاً ، ولكن ان لم تقم على اساس خال من الضعف ، سليم من الشقوق ، تمر الرياح فتتداعى وتعصف العاصفة فتنقضها حجراً حجراً

***

والوسيلة الوحيدة لاصلاح المرأة هي تعليمها . لان العلم كما قالت الباحثة :

« منور للعقل على أي حال سواء عمل به أم لم يعمل » . نحن نعلم ان نقص تربيتنا الاولى وتربية اخواتنا لا شك نتيجة جهل امهاتنا فهل نعرف الداء ولا ندا ويه وقد قال الحديث الشريف لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ؟ ان المدارس مهما اجتهدت في تثقيف عقول النشء وتهذيبها فان المنزل له تأثير خاص بالاطفال . واذا شعر تلميذ ان امه عالة اوطا نصيب من علم فانه يسعى جهده لتربيها انه أهل لحبها وتقديرها اياه فيجتهد ليحفظ سلسلة العلم لتكون الصلة شديدة بينه وبينها . فتعلمنا الحالي ناقص يجب ان يزاد عليه لا ان ينتقص منه . أما ما اشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ما ينسبونه خطأ للتعلم وحقهم ان ينسبوه للتربية » . « تلك التربية في الحقيقة يجب ان تكون من اعمال البيت لا المدرسة . ولما كانت بيوتنا لم تبلغ الدرجة التي تؤهلها لاحسان تربية الاطفال فقد وجب علينا ان نضاعف مجهوداتنا لاصلاح شأن المنشأ ثم اصلاح النشء . ولا يتم ذلك في لحظة كما قد يتوهم » (١)

كلا لا يتم ذلك في لحظة لان التربية كالعلم تكتسب شيئاً فشيئاً وتظل مكتسبة طول الحياة . والعلم هو العلاقة الوحيدة بين الانسان وبين الاشياء ، والسلك السمباثاوي الجامع بين الفكر الفردي والفكر الكوني . هو اليد القادرة الحاذقة التي تحسر اللثام عن اسرار الحياة وبه وحده يتنبه المرء لقيمته كفرد وكانسان . لا ذل في الحقيقة الا في الجهل ولا رفعة بدون معرفة . انما هلاك النوع البشري في سد ابواب الادراك وحذف امكانية التعلم والتعليم ، ولكن ما زال نوع الانسان متناولاً من بحار المعرفة والنور فهو سائر الى الامام مهما أُلبست عليه السبل

تقول الباحثة ان التربية من خصائص البيت لا المدرسة . وفي فرنسا اليوم مشروع جديد لنزع الولد من حضن العائلة وهو في السنة السابعة من عمره ليتلقى تربية اخلاقية . أليس هذا المشروع ناتجاً عن ملاحظة عدم كفاءة الامهات في التربية المطلوبة ؟ على ان هناك تربية اخرى هي تربية الذات . وقد ذكرتها

(١) النسائيات

المصلحة تلميحاً حيث قالت « فقد وجب علينا ان نضاعف مجهوداتنا لاصلاح شأن انفسنا ثم اصلاح النشء » . ان الذين يسعدون بتربية متينة في الصغر قليلون في الشرق ، ولعلهم ليسوا بالكثير في الغرب ، ولكن يكفي ان يكون المرء حساساً راغباً في الرقيّ ليباشر اصلاح نفسه . وهو يستطيع ذلك في كل ادوار الحياة وفي اي عمل من الاعمال . ولا يلبث الامرُ المتهجن في بادىء الامر ان ينقلب لذة كبيرة وقوة نامية . وربما كان اكثرُ الافراد تأثيراً في المجتمع اولئك العاكفين على تربية ذواتهم ، وهؤلاء يستفيدون من الكتب فائدة مزدوجة

من اعتقادات الناس عامة ان العلم شيء والاخلاق شيء آخر ، وقد يكون هذا الامر صادقاً في احوال كثيرة الاّ انهُ لاغٍ عند من يتعاطون اصلاح نفوسهم . عندهم يمتزج العلم بالاخلاق وتتوحد المعرفةُ والتربيةُ فتصير قوة رفيعة . وليس اقرب من العالِم الى الخلق السامي لان العلم يرينا عظمة الانسان وجلال الوجود وقدرة الالوهية الشاملة ، فيصبح العالِم محبًّا ويتوق الى الصلاح . اذ لا شيء يحثُّ على الصلاح والرفعة الاخلاقية كالحب العميق الاكيد

ألا فلنذكرنَّ ذلك جميعاً ! وانتم ايها الجالسون على مقاعد المدارس فتياناً وفتيات ، المطلّون من وراء السطور على غرائب الحياة وخفاياها وممكناتها ، انتم الامل الذي لم يذرّ بعد ، والزهرة النضرة التي لم تلفحها السموم ، لو ذكرتم اننا في عصر عظيم لكنتم شيوخ حكمة في شبابكم ! اننا في عصر لا مثيل لهُ في التاريخ ، فلا يغرر اليوم لفرد ان يكون ضعيفاً ضئيلاً لان الاحوال تطلب الطبع الكبير والارادة القوية ورجال الجد والعمل . فان لم يعدّ في نصوص الاباء ما يُرضي مطالب الابناء فما الواجب الاّ اكثر خطورةً على الذرية الحاضرة

قد تغلطُ هذه الذرية في تأويل معاني الارتقاء ولكن عليها ان تتجنب الخطأ بدرس اغلاط من كان لها سابقاً . قد تلقى فشلاً مثلما لاقى السلف ولكنها ستجعلُ اهتمامها مملوءاً بثقة في الفوز والغلبة . وستجتهد على الاقل في فتح طريق الارتقاء لمن يلحقُ بها من الذراري . وايُّ فخر اعظم من فخر يهيء السبيل ؟ أليست قيمة الباحثة في أنها حفرت خطَّ الاصلاح بدموع الاخلاص واخلاص الدموع ؟

(يتبع)

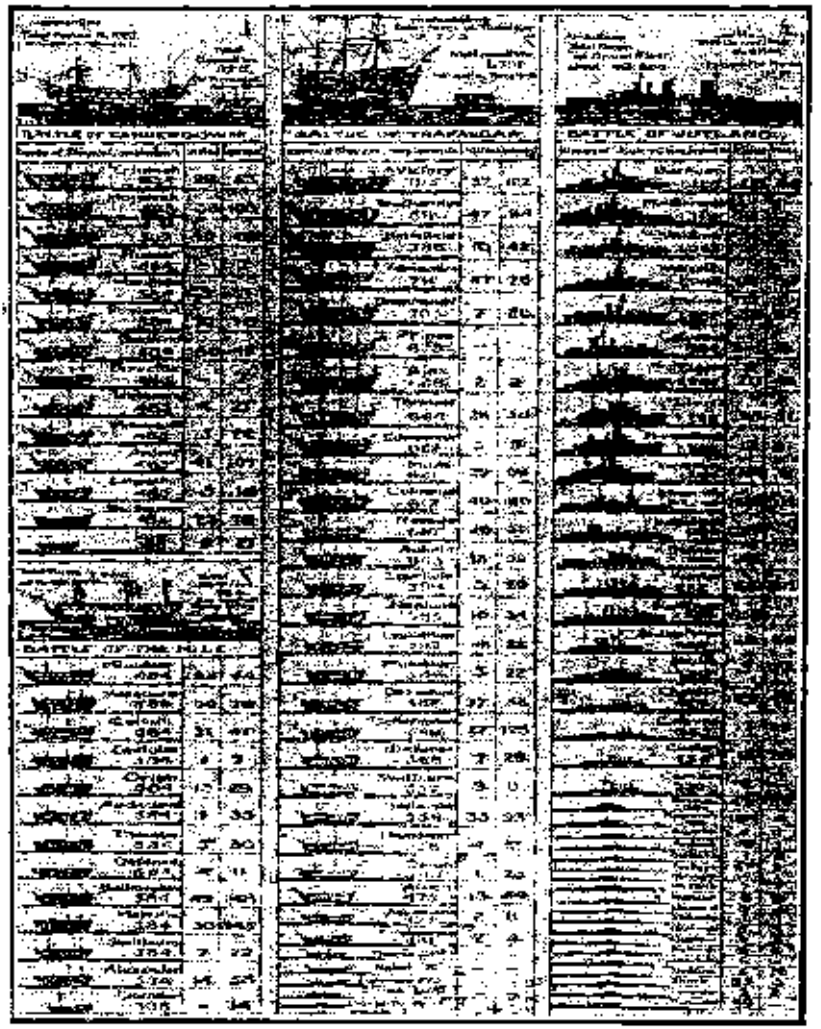

(٤) السفن البريطانية في معركة جتلند وعدد الذين خسرتهم غرقاً وقتلا وجرحاً

٣١ السفن البريطانية في معركة انطرف الاغر وعدد الذين خسرتهم قتلاً وجرحاً

(١) السفن البريطانية في معركة كمبردون

٢١ السفن البريطانية في معركة ابي قير وعدد الذين خسرتهم في المعركتين

مقتطف يناير ١٩٢٠

امام الصفحة ٦١